الوظائف الدلالية و البلاغية للقسم القرآني

الأستاد. خاين محمد
أستاذ مساعد بكلية الآداب و اللغات بجامعة الشلف

الهاتف:
0778271927
البريد الإليكتروني:
khainmohamed2001@yahoo.fr

الملخص

غايتنا من وراء هذا المقال الكشف عن بعض الجوانب الدلالية و البلاغية الكامنة وراء القسم في القرآن المكي، من خلال محاولة الإجابة عن بعض الإشكاليات المرتبطة بالموضوع، من أمثلة ما الحكمة من قسمه سبحانه وتعالى ، على علو قدره و عظمة شأنه؟ و لم أقسم بمخلوقاته؟ وما علاقة المقسم به بالمقسم عليه؟، كما أننا عملنا على إحصاء و تحليل أساليب القسم الواردة في القرآن الكريم، مع محاولة إيجاد التعليل لما اختلفنا فيه مع من تصدوا لعملية جرد القسم القرآني.

الوظائف الدلالية و البلاغية للقسم القرآني

تعددت تعريفات علماء اللغة للقسم*، وإن كانت كلها تقريبا تصب في معنى تأكيد الخبر وتقويته، والحث على تصديقه،إذ ذهب سيبويه إلى أن القسم :» توكيد لكلامك.فإذا حلفت على فعل من غير منفي لم يقع لزمته اللام و لزمت النون الخفيفة أو الثقيلة في آخر الكلمة.و ذلك قولك: و الله لأفعلن(1) ومن بين تعريفاته ما ورد عن صاحب البرهان: « و القسم لفظه لفظ الخبر، ومعناه الإنشاء، والالتزام بفعل المحلوف عليه أو تركه، وليس بإخبار عن شيء وقع أو لا يقع، وكان لفظه المضي أو الاستقبال وفائدته تحقق الجواب عند السامع وتأكيده ليزول عنه»(2).

ويقول التنوخي معلقا على قيمة القسم في تأكيد الكلام وأهميته : « إذا قصدوا مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية، وإن أكدوا فبالاسمية ثم بإن، ثم بها وباللام، وقد تؤكد الفعلية بقد، وإن احتيج بأكثر جيء بالقسم مع كل من الجملتين «(3).

أما الفقهاء فيستعملون مصطلح « اليمين « للدلالة على القسم، والقسم عندهم: « تحقيق أمر غير ثابت ماضيا كان أو مستقبلا نفيا أو إثباتا، ممكنا أو ممتنعا، صادقة أو كاذبة مع العلم بالحال أو الجهل به «(4).

من الفروق الملاحظة بين تعريفات اللغويين والفقهاء للقسم، أنه يكون بالله أو بغيره عند اللغويين، أما عند الفقهاء فالقسم لا يكون إلا باسم من أسماء الله سبحانه وتعالى أو صفة من صفاته. ومن هذه الفروق أيضا غلبة تسمية « القسم « في الاستعمال عند علماء اللغة، وغلبة تسمية « اليمين « عند الفقهاء.

وبما أن هذه الورقة البحثية غايتها البحث في الوظائف الدلالية و البلاغية في القسم القرآني، فإننا سنتجنب الخوض في المسائل النحوية المتعلقة بالقسم إلا ما جاء منها عرضا أثناء تجلية تلك الوظائف.

1- طبيعة القسم القرآني :

أجمع اللغويون على أن القسم من مؤكدات الخبر، و هذا ما يفسر وروده في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، حتى إنه يمكن لنا اعتباره ظاهرة بارزة مثيرة للبحث، ،الأمر الذي أغرى الكثير على استكناه سره واستنطاق معانيه ودلالاته، ومن جملة الإشكاليات المثارة :

ما حكمة الله سبحانه وتعالى من توظيف القسم ؟ وما آثار اهتمامهم أكثر قسمه بمخلوقاته كالملائكة والإنسان والسماء والقمر والنجم، وغيرها من ظواهر الكون وتجليات الزمان !.

و مما أسال الكثير من الحبر على وجه الخصوص مسألة كثرة القسم في القرآن المكي عنه في القرآن المدني، حيث إننا نجده واردا في ثمانية وخمسين موضعا في القرآن المكي من مجموع الأقسام التي تصل إلى ثلاثة وسبعين قسما صريحا. و مما يسترعي الانتباه كذلك أن القسم غير الصريح)المقدر(أكثر شيوعا من القسم الصريح، إذ يرد فيما يزيد عن المائتين والخمس والتسعين آية، ويتعدد أحيانا في الآية الواحدة فنجد فيها قسمين أو ثلاثة، كما في قوله تعالى : « فَلَأُقَطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِن خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (5)»، وهذا النوع يتوصل إليه بالقرائن العقلية واللفظية. ونشير إلى أننا أهملنا إدماج المختلف في شأنه ضمن ثنايا هذا البحث، ومنه: ما قاله النحاة عن الجملة الفعلية المسبوق فعلها الماضي بـــ» قد» إن كانت جوابا لقسم محذوف أم لا ؟ و الاسمية المقرونة بـــ « اللام المؤكدة(6)». فالقسم من الأساليب التي يشيع فيها الحذف، وهذا ما نلحظه في القسم القرآني، و قد علل علماء اللغة ذلك بكثرة الاستعمال وطول الكلام(7).

وذهب آخرون إلى تحليلات وتأويلات نرجئ بسط الكلام فيها إلى حينها،ومن الأمور الملاحظة كذلك استفتاح السور بالقسم، وهذا يحمل من الدلالات ما لا يخفى إذ يرشد إلى قيمة القسم، وعظمة المقسم به والمقسم عليه، والاستفتاح به يدل على أهميته، حيث استهل الله سبحانه وتعالى خمس عشرة سورة بالقسم، في قوله: « وَالصَّافَاتِ «. «وَالذَّارِيَاتِ». «وَالطُّور». « وَالنَّجْم». « وَالمُرْسَلَاتِ». « وَالنَّازِعَاتِ». « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ». « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ» « وَالفَجْرِ». « وَالشَّمْس». « وَاللَّيْلِ». « وَالضُّحَى». « وَالتِّينِ». « وَالْعَادِيَاتِ». «وَالْعَصْر*(8)».

وقد يفسر شيوع القسم في القرآن المكي بطبيعة المرحلة التي طغى فيها الجحود والكفر برسالة الإسلام، وعدم التصديق بالبعث، فكان لا بد من تأكيد هذه الحقائق بالقسم، ولكون العرب كانت تهتم بالكلام المبدوء به، وتصغي إليه،و لأن العادة جرت أن يقسم المرء حين يريد إشعار غيره بقيمة المقسم عليه. وللتدليل على قيمة القسم في حياة العربي الذي اكتسب اللغة سليقة نورد هذه القصة التي رواها صاحب البرهان : « وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(9)» صاح وقال : من الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ثم مات(10) « سقنا هذه القصة لندلل عما كانت تفهمه العرب من القسم، و الأهمية التي كانوا يولونها للكلام المؤكد بالقسم بغض النظر عن كونها وقعت أو لم تقع.

و عن الحكمة من قسم الله تعالى، والناس صنفان: مؤمن وكافر، فالمؤمن لا يحتاج إلى قسم من الله كي يصدق بما نزل، والكافر لا يصدق ولو أُقسِم له على أن ما نزل من عند الله. رد العلماء على هذا الطرح الذي يبدو في ظاهره وجيها بأن القرآن نزل بلغة العرب، وكانت العرب إذا أراد أحدهم أن يؤكد كلامه أقسم عليه. والله – سبحانه وتعالى– أراد أن يقيم عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده(11). و يقترب من هذا التعليل قول بعض العلماء: « إن الله ذكر القسم لكمال الحجة، وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين:إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة(12)». كما يوردون للقسم أحكاما أخرى منها أن القسم يكون بأمر له فضيلة، أو ترجى منه منفعة؛ فأما القسم لفضيلة فيستدلون عليه بقوله تعالى: « وَطُورِ سِينِينَ وَ هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ(13)» ولأجل منفعة(14) كقوله تعالى: « و التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ»(15)

كما شغلت ظاهرة الحذف لبعض أجزاء القسم بال العلماء، فعملوا على استخراج دلالاته، ومما توصلوا إليه أن الحذف في هذه المواطن يحقق أبعادا إبلاغية وبلاغية منها :

1- لفت الانتباه إلى مواضع العبرة، وإرادة تعظيم المقسم به أو تكريمه.

2- زيادة لذة وذلك بعمل الذهن على استنتاج المحذوف، إذ إنه كلما كان الشعور بصعوبة الوصول إلى المحذوف، كان الالتذاذ أشد وأعظم.

3- البحث عن الاختصار، وتحصيل المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، وهو ما يعبر عنه لسانيا بـــ « الاقتصاد اللغوي».

4- موقعه في النفس المتلقية، وهو ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله : « ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره(16)».

ولنا أن نستدل على المعاني المذكور آنفا بقوله تعالى : « ص،وَ القُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ،بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ،كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ»(17). الجواب هنا محذوف لطول الكلام، وتقديره: لأعذبنهم على كفرهم، وقال آخرون : الجواب، إن ذلك لحق،أما ابن القيم فقد زعم بأن» بل» جاءت بمعنى» إن» في توكيد الخبر،و أن هذا النظم لم يعرف في العربية قبل البلاغة القرآنية،فهو يرى أنه من الوارد أن يكون هذا ما أحدثه الله عز وجل(18) ويحتج لاجتهاده بما جاء به أبو القاسم الزجاج من أن النحويين يرون بأن «بل»تقع في جواب القسم كما تقع» إن» لأن المقصد منها توكيد الخبر، وأن هذا الرأي قد أيده أبو حاتم و رواه الأخفش عن الكوفيين(19).

و هو الأمر الذي يجيز لنا القول إن كل متأول أعمل فكره في تقدير الجواب وفي هذا اجتهاد – ولن يعدم المجتهد أجره – ولذة في البحث، وبلاغة في الكلام، وتفخيم للمقسم به وإعظام له واختصار. والقسم القرآني نوعان : بذات الله وبمخلوقاته، وفيما يلي من الصفحات تفصيل هذين النوعين.

-1-1- القسم بذات الله :

ورد القسم باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته أربعا وأربعين مرة، وفي صورتين: الصادر من الله تعالى، والجاري على ألسنة عباده. أما النوع الأول فقد ورد في سبعة مواضع، هي: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ (20)». «قُلْ: إي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ (21)»، «قُلْ:بَلَى،وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ (22)»، «فَوَرَبِّكَ، لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ (23)»،»فَوَرَبِّكَ، لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (24)»،»فَلَا وَرَبِّكَ،لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ (25)»، «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَ المَغَارِب (26)». أمـــا الباقي فغالبا ما نجده يجري على ألسنة الكافرين والمنافقين، وهو عبارة عن أيمان كاذبة يتخذها هؤلاء درعا يتقون بها غضب المؤمنين. و نلحظ مثل هذا القسم خاصة في القرآن المدني، حيث يرد مثلا في خمس آيات من سورة التوبة، ومنها:»سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اِسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ (27)»، «وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ (28)»،»يَحْلِفُونَ بِاللهِ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (29)».

ونجده في سور مدنية أخرى إشارة إلى هذا الصنف من البشر الذي اتخذ القسم غطاء لمينه وكذبه، ممن لم يرعوا لاسم الله حرمة :»وَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ (30)» وكانت الغاية من فضح أساليب هؤلاء الناس حتى لا ينخدع المؤمنون ويصدقوا هذه الأيمان الكاذبة وفيه فوق هذا تعظيم للمقسم به ودليل رفعة وقداسة.

1-2 القسم بمخلوقات الله:

ما تجب الإشارة إليه أولا هو اتفاق العلماء على أن القسم بالمخلوقات أمر اختصه الله لنفسه، ولم يبحه لأحد من عباده، حيث حرم الحلف بغير الله، وعده كفرا وشركا(31). ولهذا السبب راحوا يبحثون على الدواعي والدلالات التي يحملها هذا القسم، ومن جملة ما توصلوا إليه في الحلف بغير الله الذي تُلحَظ فيه معارضة ظاهر الكتاب لما ورد في الأثر، إذ إن الله سبحانه وتعالى أقسم في الكتاب بالسماء والنجم والملائكة والخيل....الخ.

-1 أن المقسوم به وهو الله تبارك وتعالى والتقدير: ورب السماء، ورب النجم، ورب التين.

-2 نزول القرآن على ما تعرف العرب،إذ إنهم كانوا يعظمون هذه الأشياء، ويقسمون بها.

-3 اهتمام العرب بالكلام المبدوء بالقسم و إصغاؤهم إليه وبالتالي التفكير فيه، ومن ثَمَّ الاهتداء إلى الحق.

-4 القسم يكون بالمعظم وبمن هو أعلى، والله تعالى ليس فوقه شيء، لذا أقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على قدرته في الخلق.

-5 لفت النظر إلى مواضع العبرة في الأشياء المقسم بها، والحث على تأملها للوصول إلى وجه الصواب(32) فيها.وفي الصفحات الموالية، نحاول مقارنة الدلالات التي يحملها القسم بالمخلوقات، والتي يمكن حصرها في : الإنسان، الملائكة، الظواهر الكونية، الخيل، القلم، القيامة.

1-2-1- القسم بالإنسان :

جاء في الأثر أن ابن العباس استدل على فضل البشر بقسمه سبحانه وتعالى بحياة رسوله – صلى الله عليه وسلم – حينما قال:»لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (33)». وقد وجد من عارض هذا الاستدلال بأن الباري – سبحانه وتعالى – لم يقسم بحياة نفسه، وأقسم بالسماء والأرض، وهذا لا يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان السبع. ويرى هذا الفريق أن هذا القسم، نظير قوله له(34) – عليه السلام:»لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ (35)» وذهب آخرون إلى أن قسمه بحياة النبي – عليه السلام – يحمل دلالة تعظيم وتمييز له، إذ لم يقع لنبي ولا لرسوله قبله، وحتى يعرف الناس قدره، وفي ذلك تعزيز لمكانته بين البشر(36). و تثبيت لفؤاده.

وعن قوله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ،وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ،إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ،قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ،وَ لَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ،تَنْزِيلٌ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37)»، يرى أحدهم أننا بإزاءِ قسم منفي، وذلك بعد أن يشير إلى الظروف المحيطة بهذا القسم والمتمثلة في كون السورة مكية، والغاية منها حمل مشركي مكة على نبذ الأوثان وتوحيد الله،والتصديق بالرسالة المحمدية. إن القسم في هذه الآية ذو دلالتين؛ الأولى منهما: كونه قسما، والقسم قادر على شد الانتباه، بإشعاره بقيمة الأمر المقسم عليه، والدلالة الثانية: كونه منفيا، وهو أسلوب – يراه صاحب هذا الطرح– يكاد يكون جديدا على الذوق العربي آنذاك، وبالتالي فهو أشد إثارة للاهتمام، لاسيما وأن النفي سابق للقسم « لا أقسم « وبذلك فهو يحمل إيحاء بأنه (النفي) المقصود أساسا. كما يفهم من هذا النفي أن الذات الإلهية لا تحتاج للقسم على صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم– بما يبصر الناس وما لا يبصرون، كما يرى أن في هذا القسم تكريما للإنسان باعتبار أن القسم مظهر من مظاهر الاهتمام بالمقسم به فهو « يلحظ واقع الإنسان من زاوية العجز وقلة الحيلة، اللتين تنبه إليهما الآية الثانية خاصة : وما لا تبصرون(38)» ففي هذا القسم إشعار بمحدودية الاستطاعة الإنسانية مهما كانت شدة المحاولة، لأن الإرادة الربانية قررت ذلك، ومن مظاهر هذا العجز وقلة الحيلة أن ثمة مخلوقات لا يستطيع الإنسان أن يراها.

وينتقل الباحث بعدها إلي جواب القسم «إنه لقول رسول كريم» ليحدد وجه دلالته في كون أن القرآن الكريم إنما ينزل به رسول من الملائكة – جبريل عليه السلام – كريم على رسول من البشر كريم، فهذا الرسول من الملائكة(39) : « تنطبق في حقه الآيتان الأوليان : فلا : أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه باختصار يبصره المصطفى – صلى الله عليه وسلم– ولا يبصره الآخرون(40)». فنحن هنا أمام دلالات نفسية عقـــلية منطقية، إذا سلمنا بأن القسم في هذا المقام منفي ذلك أن في القدامى من رأى في « لا « أنها جاءت للتأكيد لوقوعها بين الفاء و معطوفها وقيل : زيدت توطئة لنفي الجواب، أي : لا، أقسم(41)»، والتقدير هنا أيضا «لأقسم» أو « لأنا أقسم « وكلها آراء وجيهة.

1-2-2- القسم بالملائكة :

ورد القسم بالملائكة في مفتتح ثلاث سور: هي الصافات، المرسلات*والنازعات وذلك للدلالة على انهم عباد لله، لا يعصونه ما أمرهم، وليسوا بآلهة فيعبدون(42) كما كان شائعا آنذاك من أن الملائكة بنات الله، أي أن القسم كان لمحض الاستدلال فلا يمكن أن يدور في خلد إنسان عاقل أن يجعل الله مخلوقاته موضع المعبود المقدس، ذلك أن « القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل(43)».

1-2-3- القسم بالظواهر الكونية والطبيعية:

ورد هذا النوع من القسم في مواطن كثيرة حيث أقسم الله سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والنجوم لما فيها من المنافع، وأن عدم ثباتها على حال إنما يدل على حدوثها، وأن لها خالقا وصانعا مثلما بيّنا من قبل من أن القســم بالمخلوقات يكون إما لفضيلة أو منفعة. وأقسم بالريح والطور (الجبل المعروف)، وغيرها كالزمان مثل العصر، والضحى والفجر والليل ليتوجه إليها الإنسان بالفكر والنظر(44)، كما نص عليه القرآن الكريم صراحة في قوله – جل جلاله – :»وَ الْفَجْر،وَ لَيَالٍ عَشْر،وَ الشَّفْع وَ الوَتْر،وَ اللَّيْل إِذَا يَسْري،هَلْ في ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (45)» أي : لَذي عقلَ. و من الآيات التِي ورد فيَها مثل هذا القسم قولهً تعالى:»و النجم إذا هوى ما ضل صاحبكم و ما غوى(46) « وقد يتساءل البعض عن علاقة القسم بالمقسم به وهو هنا نفي إضلال النبي – عليه السلام– وغوايته وخروجه عن جادة الصواب.

ولتوضيح هذه العلاقة نشير بداية أن هذه الآيات من سورة مكية تتوجه بالخطاب لقوم يملكون معلومات مشوهة عن الله والملائكة، كما أن قضية الوحي مجهولة تماما لديهم، حتى إنهم لم يستطيعوا هضم ولا تفسير، كيف يكون محمد – صلى الله عليه وسلم – نبيا وهو بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وينكح النساء؟ يقول تعالى في معنى ما سبق:» وَ قَالوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا(47)»،وقد دفعهم هذَا الجهل إلى اتهامَ الرسول عليه السلام– بالكهانة وأن الشياطين توحي إليه، وههنا سر هذا القسم، إذ إن النجم الذي يهوي من السماء، وبذلك يوجه أنظارهم إلى أمر يبصرونه جميعا وقد لا يعيرونه أي اهتمام، إنما هي شهب تخر لامعة من السماء، ولا تعدو عن كونها سلاحا يطلقه الله على الشياطين التي تعمل على استراق السمع، والتــقاط الوحي، وبفضل هذه الحماية الربانية عُصم النبي – عليه السلام – من إغواء الشياطين وإضلالها. و من هنا يتضح أمر هذه العلاقة التي تربط المقسم به بالمقسم عليه وتتجلى دلالة القسم في الآيات السابقة(48). وفي قوله تعالي :»وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ،وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ،النَّجْمُ الثَّاقِبُ،إِنْ كُلُّ نَفْس لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (49)»،فالقسم الوارد في هذه الآية، لا بد أن يحويً معنى الحفظ الموجود في المقسم عليه : « إن كل نفس لما عليها حافظ» والحفظ أنواع : منها الحفظ العام، فالطارق أو النجم الثاقب هو ذاك الشهاب الذي يرى ليلا نازلا في خط لامع متوهج، طارقا الكرة الأرضية، ولو قدر له أن يصل إليها لأهلك الحرث والنسل، وهناك الحفظ من الشياطين– المشار إليه آنفا– ثم يستطرد الكاتب في ذكر أنواع أخرى من الحفظ، كالحفظ الخاص، والحفظ الأخروي، والحفظ الغذائي،وحفظ الإسلام(50)، في هذا التخريج بعض الوجاهة وإن كنا لا نسايره في كل ما يقول خصوصا عندما يقحم النظريات العلمية في إيضاح العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه للتأكيد على ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ويتضح لنا الخط الذي يترسمه هذا الباحث من عنوان كتابه الذي وسمه بـــ « كشوف جديدة في إعجاز القرآن الكريم». و في قوله تعالى:»فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ،وَ اللَيْل وَ مَا وَسَقَ،وَ القَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ،لَتَرْكُبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَق (51)».

يـــرى صَاحب هذا الطرح أن القسمً في هذه الآيات قد تحقق في عصرنا، لأنه عصر زاخر بالطبقات التي يمكن للإنسان أن يركبها صعودا ونزولا في الدنيا، أي أن هذه الآيات قد تعني هذه الأحداث الدنيوية(52). والواضح أنه يميل كثيرا إلى تحميل القسم دلالات علمية، وهو ما يتحفظ منه كثير من علمائنا، ولتحفظهم مشروعيته ووجاهته؛ فهم يرفضون إخضاع القرآن إلى مثل هذه التفسيرات، وتحميله هذه الأشكال من الدلالات ويرون ذلك خطأ يجب تجنبه لأن القرآن لم ينزل ليكون حاملا للنظريات العلمية، ودقائق الفنون والمعارف المختلفة،و من ثَمَّ يكون تأويل المتحمسين لهذه النظريات تأويلا متكلفا، فيه لي لأعناق الآيات – كما قيل قديما– قد يتنافى وروح الإعجاز، ويجعل القرآن يدور مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات والاستقرار، فقد يصير ما هو صحيح اليوم خرافات في الغد، فنحمِّل القرآن تبعات هذا الخطإ، ونوقف بذلك أنفسنا موقفا حرجا في الدفاع عنه، ونمد خصومه بحجج للقدح فيه والطعن في صحته.ويكفينا من كل هذا أنه – القرآن– لم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم التي تطمئن إليها العقول(53).

1-2-4- القسم بالخيل :

وذلك في قوله تعالى :»و العَادِيَاتِ ضَبْحًا،فَالمُورِيَاتِ قَدْحًا،فَالمُغِيرَاتِ صُبْحًا،فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا،فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا،إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (54)» وفي قسمه سبحانه وتعالى بالخيل شرف لهاَ، ولا غرو في ذلك، فقد قال فيها المصطفى عليه السلام، في الحديث الذي رواه البخاري : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» ولنا أن نسأل : أي أنواع الخيل شرفها الله بأن أقسم بها ؟ لا شك كما توضح الآيات التالية أنها خيل الجهاد في سبيل الله، وليست تلك التي تتخذ للزينة، أو للاعتداء على حرمات الله، والقسم « والعاديات « يرشد إلى أسرعها عدوا وعلى هذا معنى الآية : أقسم بخيل الجهاد في سبيل الله ويصادفنا في جواب القسم لفظة الإنسان التي يكاد يكون المقسم به بكل مشمولا ته والذي استغرق نصف السورة،إنما يقع بين يدي الجواب المتعلق بالإنسان، والمدقق في دلالة القسم ههنا يلحظ ثمة مطابقة بين المقسم به والمقسم عليه « فالمقسم عليه هو كنود الإنسان وجحوده بفضل ربه وكفرانه بنعمائه..... وفي ذلك جموح من القلب وعنف في الطبع وشراسة في الخلق وغرور من النفس وافتتان بالقوة وهذه كلها من أوصاف الخيل حين عدوها وإغارتها(55)».

1-2-5- باقي الأمور المقسم بها :

ومما أقسم به سبحانه القلم، في قوله جل جلاله:» ن و الْقَلَم وَ مَا يَسْطُرُونَ(56)» وليس هذا غريبا على كتاب أول ما نزل منهَ يحث على القراءة وطلب العلم، والقلم أهم وسيلة في هذا الميدان. وفي هذا القسم دلالة قاطعة على المكانة الراقية التي يحظى بها العلم والعلماء في هذا الدين، فالقسم لا يكون – كما علمنا– إلا بالمعظم والجليل ذي الفضيلة كما أقسم المولى – عز وجل – بالطور، وهو كما قال المفسرون الجبل الذي كلم الله بحذائه موسى – عليه السلام– وأقسم بالتين والبلد والقيامة لمحض الاستدلال كما قال المفسرون.

2- المقسم عليه ودلالته :

يرى الباحثون أن ثمة مناسبة وتجانس وارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فالأمر ليس مجرد تنويع في القسم من موضع إلى آخر(57). وكنا قد أشرنا أثناء حديثنا عن المقسم به إلى العلاقة الرابطة بينه وبين المقسم عليه في بعضِ المواضعِ، يقول تعالى: «وَ الضُّحَى، وَ اللَيْل إِذَا سَجَى،مَا وَدَّعَكَ رَبُّك وَ مَا قَلَى (58)» يقول صاحب الإتقان عن مطابَقة المقسم به للمقسم عليه : « وتأمل مطابقة القسم، وهو

نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، المقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه – وافى النبي عليه السلام– حتى قال أعداؤه:ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه⁽59⁾»، ونجد في المقسم عليه بالقلم والكتابة تنزيها للنبي عليه السلام عما يرميه به أعداؤه، وفي هذا المعنى يقول ابن قيم الجوزيه:» و أنت إذا طابقت بين هذا القسم و المقسم به وجدته دالا عليه أظهر دلالة و أبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر عن مجنون، و لا تصدر إلا عن عقل وافر،فكيف يصدر ما جاء به الرسول من مجنون»⁽60⁾.

ومما اقسم عليه سبحانه :

–1أصول الإيمان؛ كوحدانية الله،كما في قوله: «وَالصَّافَاتِ صَفًا،فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا،فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا،إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ⁽61⁾».

–2 إثبات أن القرآن حق وأنه من عند الله، ومنه قوله تعالى:»فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم، وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ⁽62⁾».

–3 إثبات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، نحو قوله عز وجل :»يَس،وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ،إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ⁽63⁾».

–4 وقوع الجزاء، ووعد المتقين، ووعيد الجاحدين، ونفي الصفات المشينة التي اتهم بها المشركون محمدا – صلى الله عليه وسلم– نحو: « ن وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ،وَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ⁽64⁾»

–3 إحصاء وتحليل القسم القرآني الصريح:

سنحاول فيما تبقى استنطاق لغة الأرقام بشأن القسم القرآني، فللأرقام دلالتها، فمن خلال معرفة مثلا عدد المرات التي ورد فيها القسم في القرآن المكي نفهم السبب وتتضح الدلالة. وقد قمنا باعتماد جميع الأقسام الواردة في القرآن الكريم، سواء تلك الصادرة من لدنه سبحانه وتعالى، أو الجارية على ألسنة عباده صادقة كانت أو كاذبة وعلى هذا الأساس وجدنا أن مجموعه ثلاثة وسبعين قسما واردا في ست وخمسين سورة وقد أحصاها واضع « المعجم المفهرس لمواضيع آيات القرآن الكريم» المذيل به «مختصر تفسير الطبري» مروان العطية فوجدها ترد في ثمان وثمانين آية ضمن سبع وعشرين سورة⁽65⁾، وذلك لأنه لم يعد من القسم القرآني إلا الصادر من الله سبحانه و تعالى، وأهمل حساب القسم الجاري على ألسنة البشر. أما نحن فقد قمنا باعتبار جملة القسم وحدها آخذين في الحسبان بقول النحاة: من أن الواو الأولى للقسم وسائر الواوات للعطف⁽66⁾، كما في قوله تعالى:»وَ اللَيْلِ إِذَا يَغْشَى،وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى،وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الأُنْثَى،إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ⁽67⁾» أما صاحب المعجم فقد عدّ كل الآيات الوارد فيها القسم مراعاة للمعنى كما نلفت الانتباه أننا أثناء حسابنا لحروف القسم، اعتدنا بالباء المحذوفة وأوردناها في الحساب نظرا لكونها تقدر – كما يقول النحاة– مع فعل القسم الصريح دون غيرها، نحو قوله تعالى :»وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ ⁽68⁾» أي : يحلفون بالله، وقوله :»وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ⁽69⁾» والتقدير: يقسم المجرمون بالله، وهذا النوع من الباء المقدرة واردة في ثمانية مواضع في القرآن الكريم.

يوضح استنطاق هذه الأرقام أن المقسم به الغالب في القرآن الكريم مصدره محيط الإنسان، و محسوساته وما يشاهده من آيات الكون، وفي ذلك من الدلالات ما لا يخفى من دفع إلى التفكر والتدبر والتأمل، ويمكن أن يقال في ذلك إنه : « استهدف العظة والإرشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد⁽70⁾» فالقرآن خاطب الناس جميعا على تفاوت عقولهم ومداركهم، والأمور المذكورة آنفا قاسم مشترك بين الجميع.

وإذا انتقلنا إلى الأمور المقسم عليها، نجد أن النسبة العالية تتمحور حول الوعد والوعيد، وليس هذا بدعا على كتاب

–1 عدد مرات الورود: 73 مرة
– في القرآن المكي: 58 مرة (45 ,79 %)
–في القرآن المدني: 15 مرة (54 ,20 %)

–2حروف القسم:
– الباء : 32 مرة (43,83 %)
– الواو: 33 مرة (20 ,45 %)
–التاء: 08 مرات (95 ,10 %)

–3 المقسم به :
–بذات الله أو صفاته: 41 مرة(56,16 %)
بمخلوقاته: 32مرة(43.83%)

–3 تحليل المقسم به:

– الإنسان ومتعلقاته : 03 (09,37 %)
– الملائكة: 02 (25 ,06 %)
– الحيوان: 01 (25 ,03 %)
– النبات: 01 (25 ,03 %)
– القرآن: 04 (50 ,12 %)
– القيامة: 01 (25 ,03 %)
– السماء ومتعلقاتها : 05 (15,62 %)
– المكان: 03 (37 ,09 %)
– الزمان 9 ((12 ,28 %
– القلم: 01 (25 ,03 %)
– الرياح: 02 (25 ,06 %)

–4 المقسم عليه: المحذوف: 09

– أصول الإيمان: مثل وحدانية الله: 02 (73 ,02 %)
– القرآن حق وأنه من عند الله : 02 (02,73 %)
– صدق الرسول(ص) في نبوته، ونفي التهم التي ألصقها به الكفار: 06 (08,11 %)
– الجزاء، الوعد والوعيد: 24 (61 ,35 %)
– فضح قسم المشركين على أمور كاذبة : 16 (21,71 %)
– مختلفات (غواية إبليس لآدم، قسم المتلاعنين، شهادة الوصية، قسم إخوة يوسف، قسم إبراهيم عليه السلام ...):14 (18,91 %).

غايته دفع الناس إلى الإيمان بالله، والإقلاع عما هم فيه من ضلال وشرك وكفر، فالمقسم عليه أو لأجله هو غاية القسم ومدار الحديث.و مما استأثر حيزا معتبر من الأمور المقسم عليها، فضح قسم المشركين على أمور كاذبة وهو ما نلحظه بخاصة في سورة التوبة، حيث ورد فيها خمسة أقسام من هذا القبيل تدور كلها حول قسم المنافقين لأجل خداع المؤمنين. ومن خلال هذا النوع من الأقسام وموازنتها مع القسم المقدر الوارد في سورة « المنافقون »، نلحظ المنحى التطوري لهذه الفئة التي انتقلت من القوة إلى الضعف، حيث إن السورة الثانية نزلت في أوائل العهد المدني، في حين أن الأولى نزلت بعد غزوة تبوك؛ يقول تعالى : «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ (71)»، ويقول بعدها عن هذه الطَائفة :»وَ يَحْلِفُونَ بَاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُم وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (72)».

4- نماذج من صيغ القسم القرآني :

نحاول ههنا التعرض لبعض النماذج القسمية الواردة في القرآن الكريم لغرض إتمام الحديث عن علاقة المقسم به بالمقسم عليه، من منطلق أن أجزاء القسم وأركانه متكاملة المعنى،كما نشير إلى بعض ما كان سائدا في الجاهلية من مفاهيم خاطئة عن الزمان، أراد القرآن أن يصححها، وينبه إلى موضع الخطإ فيها من خلال القسم بها، لأنه أكثر الأساليب استرعاء للانتباه، ولفتا للأنظار.

يلاحظ في تلك الأمور المقسم بها، أنها كانت لمحض الاستدلال لا غير، ومن هذه النماذج قوله تعالى : « وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ... (73)» أقسم سبحانه و تعالى بالعصر، وهو لفظ ذو دلالتين؛ الزمانً أو الدهر- كما قال ابن العباس والذي يشمل حركات الناس وأعمالهم، وهو كذلك الوقت المعروف الذي تجب فيه صلاة العصر. وكانت عادة العرب في جاهليتهم الالتقاء في هذا الوقت المخصوص للتحادث والتذاكر في شؤونهم، بعد أن يكونوا قد فرغوا من أعمالهم اليومية، وقد كان في حديثهم من اللجاج والخصومة ما لا يليق، فيؤذون بعضهم فيتوهمون أن هذا الوقت مذموم، و أنه سبب ما يجري بينهم فجاء قسم الله به ليزيل هذا الوهم من أذهانهم، ويبين لهم أنّ الزمان نفسه ليس فيه ما يذم ويسب لذاته، كما اعتادوا أن يفعلوا،بل هو ظرف يشهد لشؤون الله الجليلة من خلق،و رزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع، فلِمَ يذم لذاته ؟.

والقسم هنا واقع بالزمان مطلقا أو بذلك الوقت المخصوص، وكلاهما تنطبق عليه هذه الأوصاف، فعليهم إذن أن يتوجهوا بالذم إلى أفعالهم الممقوتة لا إلى الزمان الذي حواها. و قد وقع القسم على خسارة الإنسان إلا من استثنتهم الآية الكريمة والعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه تكمن في كون أعمال الإنسان هي مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان(74) ويقول سبحانه وتعالي :»وَ اللَيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى، وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الأُنْثَى،إِنَّ سَعْيَكَمْ لَشَتَّى،فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى،وَصَدَّقَ بِالحُسْنىَ،فَسَنُيَسِّرُه لِلْيُسْرَى (75)» في هذه الآيات يقسم الله بالليل على اختلاف سعي الإنسان، وبخلقه الذكر والأنثى على تعدد أعماله، حيث حذف فعل القسم وعوض « بالواو»، وإضمار الفعل في هذه الآية وفي سائر السور المفتتحة بالقسم يرجع إلى كون الأسلوب القرآني الكريم في أغلبه تصويري، غايته تحقيق الإقناع عن طريق البراهين العقلية والتأثيرات النفسية، وهذا الأسلوب التصويري نلحظه في القسم الوارد هنا في تشخيص الكون على أنه في حركة دائبة، فالليل يغشى النهار بظلامه فيستره، ويعقبه النهار فيجلي كل شيء ستره الليل فيكشفه، والمخلوقات باختلاف أصنافها في سعي وحركة.

والقسم بالواو أبلغ دلالة من ذكر الفعل وأقوى حجة، خاصة عندما تتعدد المقسمات كما هو الحاصل في هذه الآيات، حيث تتابع تتابعا مألوفا لا تنافر فيه في صورة فينة مكتملة ويأتي بعدها جواب القسم مؤكّدا بإنّ و اللام « إنّ سيعيكم لشتى»،وما يلحظ في هذه الآيات هو ذاك التقابل بين الأمور المقسم بها (الليل والنهار وخلق الذكر والأنثى) والتفاوت بين الأمور المقسم عليها (اختلاف سعي الإنسان بين من أعطى ومن بخل واستغنى) وتفاوت الجزاء (بين الأشقى والأتقى) فعلى نحو ما يتفاوت الليل إذ يغشى بظلمائه النهار إذا تجلى بضيائه، يتفاوت سعي الناس في الدنيا بين ضلال وهدى(76).

والنموذج الثالث الذي نختم به هذا المبحث قوله- عز وجل» فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم،وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ،إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ،فِي كِتَاب مَكنُونٍ،لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ (77)». لقد اختلف في شأن اللام في هذا النوع من القسم، نحو: «لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ(78) « و «فَلَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (79)» و»فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ،وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ (80)»؛ يقول الطبري عن مواقع النجوم، مساقطها ومغايبها(81) أما عن « لا « فقيل عنها إنها نافية ومنفيّها قد يكون شيئا تقدم في سورة أخرى لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ويستدلون على ذلك بأن يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، نحو «وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (82)» والجواب ورد في قوله : «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (83)». والرأي الثاني يذهب إلى أن منفي « لا « هو الفعل « أقسم» والمعنى أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له، يتضح من الكلام الذي عُقِّب به على هذا القسم : « أي إن « إعظامه بالإقسام به كلا إعظام، أي أنه يستحق إعظاما فوق ذلك(84)». كما قالوا عنها : إنها زائدة، ورأوا في الفائدة منها رأيين هما : التمهيد و التوطئة لنفي الجواب، كتقديرهم له في قوله تعالى: « لا أقسم بيوم القيامة « هو، لا، أقسم ثم يرد الجواب، والرأي الثاني، أنها لمجرد التوكيد وتقوية الكلام وكون التوكيد بها في أول الكلام يفيد الاعتناء به. والدليل على أنها زائدة للتوكيد وقوعها بين الفاء و معطوفها(85). وقال المفسرون عن علة القسم بمواقع النجوم، واستعظام الله له، إنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين.

5- الأغراض البلاغية للقسم في القرآن الكريم :

ما من أسلوب قرآني إلا وله أغراض بلاغية تتجلى في صياغته؛ فالمتدبر في سياق كل جملة قرآنية، لابد أن يلاحظ حكمة ورودها بالأسلوب الذي جاءت به، والمعنى المراد منها تبليغه، والهدف الذي تستهدفه(86)، وكل هذا يتنوع بتنوع المواقف والمضامين. وعلى هذا لنا أن نحصر أغراض القسم البلاغية، بوصفه أسلوبا يرد لتبليغ معنى في موقف معين فيما يلي(87):

1- يدل القسم على التوكيد والقوة، فقوله تعالى: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (88)» يشعر متذوق اللغة بمتانة إحكام التراص اللفظي في عباراتها المؤكدة بالقسم الصريح بـ « رب « المضافة إلى السماء والأرض، وإتباع القسم « بأن « الثقيلة، و» لام» التوكيد المزحلقة وتعقبيها بأن الثقيلة ثانية التي تضفي على العبارة قوة، وتصبغها بطابع الصدق والوضوح، وتهز وجدان السامع وتقطع عليه سبيل الإنكار.

2- يقطع القسم على الخصم طريق الإنكار، فالمنكر قد ينكر الجواب لأنه خبر، غير أن الفرصة لا تعطى له لإنكار القسم في ذاته. وفي أحايين أخرى يكتفي بالقسم، وتحذف منه جملة الجواب الخبرية، ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف، حتى لا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء- جملة القسم - إلى خبر فينازع فيه، وإنما يهجم عليه بما يؤيد الاستدلال

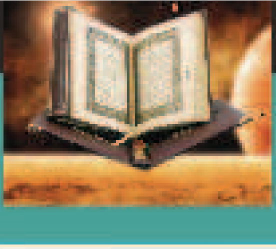

المقصود من الكلام السابق؛ ففي قوله تعالى :»ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ،بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (89)» اكتفى بالقسم، واجتنب الجواب، واستغنى عنه بما ذكر من صفة القسم. أما إذا كان الجواب مما لا ينكره الخصوم، فانه لا يحذفه، ومنه قوله عز وجل : « حم،وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ،إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (90)» فكونه كتابا، وكونه قرآنا عربيا لا يُنكر منهما شيء(91).

–3 الإيجاز للاستدلال، حيث انه بالإمكان جمع عدة دلائل في عبارات موجزة، وان دلت على أمر واحد فمن جهات مختلفة، وهو ما يلاحظ في الأقسام الواردة في سور : الطور والبلد والتين، يقول تعالى: «وَ الطُّورِ،وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ،فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ،وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ،وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ،وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ،إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (92)»

–4 يكسب القسم مطالع السور رونقا و ديباجة، ولعله من أصلح أساليب الكلام تصويرا، لذا وشّى السور المفتتح بها بألوان الصور كالقلم الكاتب والنجم الثاقب والخيل العاديات. ونجد فيه صورا عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور السنين(93).

وللقارئ المتدبر أن يلحظ أمرا آخر يخص هذه المطالع التي تستهل بالحروف المتقطعة والتي تستغرق ربع السور المكية منها والمدنية، فعادة ما يعقبها ذكر القرآن والكتاب وتنزيله وإحكامه وحكمته إما على شكل قسم أو تنويه أو تنبيه وتهدف كلها إلى توكيد الحقائق واسترعاء الأسماع لما ينزل، ومواطن العبرة والدلالة فيه(94).

ونخلص من هذا كله إلى أنه يحق لنا أن نعد القسم، باعتباره من مؤكدات الخبر وسيلة من الوسائل التدعيمية والتأييدية كالقصص القرآني، والأمثال، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والتنديد، والجدل، والحجاج والأخذ والرد والتذكير والبرهنة ولفت الانتباه إلى نواميس الكون، ومشاهد عظمة الله التي تخدم أسس الرسالة القرآنية المتمثلة في المبادئ والقواعد والشرائع والأحكام، كوحدانية الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد، واتصافه بجميع صفات الكمال، ومطلق التصرف، واستحقاقه العبادة وحده، والقيام بسائر الواجبات التعبدية تقربا إليه(95).

و خاتمة الكلام هو أن القسم في القرآن الكريم موضوع مثير للتساؤلات الكثيرة، والبحث فيه محفوف بالمخاطر لأنه خوض في كلام الله، لذا قمنا بجمع الدلالات التي قال بها العلماء والمفسرون، وخاصة ما تعلق منها بقسم الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته، فكل من أدلى بدلوه في هذه القضية كانت مرجعيته أنه أمر اختصه الله لنفسه، وما دوره إلا البحث عن مواطن العبرة، ومواضع الحكمة فيما اقسم الله به،ومما خرجنا به كذلك كثرة الاختلافات في أمر القسم، واحتدام الجدل حول بعض الإشكاليات كتقدم « لا» في بعض الأقسام القرآنية على فعل القسم الصريح، وحذفها كما في قوله تعالى :تَا اللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ (96) « و دلالات الزيادة والحذف في كل منهما.

كما يلاحظ أيضا غلبة القسم المقدر على القسم الصريح في القرآن الكريم. ومن النقاط التي لم نجد لها إجابة هو أن الجملة القسمية عموما من مؤكدات الخبر، أي من أساليب التوكيد، بمعنى أنها جملة خبرية، ومع ذلك عندما نرجع إلى كتب البلاغة نجد القسم مصنفا صمن الإنشاء غير الطلبي، بل إن القسم الاستعطافي بجملتيه إنشائي محض، والتساؤل المطروح هو : كيف يكون للجملة الواحدة اعتباران في الآن نفسه ؟ وعلماء اللغة يقولون، والمنطق وتحكيم العقلي يؤكدان أن احتمال أي اعتبار منهما يحجب الثاني، وبتعبير آخر كيف تكون الجملة إنشائية وخبرية في الوقت ذاته ؟ .

---

*جاء في اللسان : « القَسَم «، بالتحريك : اليمين،و كذا المُقسم ، وهو المصدر مثل المُخرَج، والجمع أقسام، وقد أقسم بالله واستقسمه وقاسمه : حلف له، وتقاسم القوم : تحالفوا، وأقسمت : حلفت. وأصله من القَسَامة: الذين يحلفون على حقهم ويأخذونه. والمُقسَم: القَسَم والمَقسَم: الموضع الذي حلف فيه. والمُقسِم: الرجل الحالف، أقسم، يقسم إقساما»(لسان العرب.ابن منظور .تحقيق علي شيري.دار إحياء التراث العربي.ص 164ج11. ط1.بيروت.1988.)

–1 الكتاب.سيبويه.تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون.ج3.ص104.ط3. مكتبة الخانجي .القاهرة.1988.

–2البرهان في علوم القرآن.الزركشي.ج2. ص.374.تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل.
دار الجيل.بيروت.1988.

–3عن إعراب الجمل وأشباه الجمل د – فخر الدين قباوة ص 390.
دار الأصمعي.حلب.ط2. 1972.

–4 الأيمان والنذور د. محمد عبد القادر أبو فارس ص 20.
دار الشهاب.باتنة .الجزائر 1987.

–5 طه : 71 .

–6 ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ج 2 ص 846.ابن هشام الأنصاري. تحقيق د.مازن المبارك و محمد علي عبد الله.مراجعة سعيد الأفغاني.
دار الفكر.بيروت1988.

–7 ينظر: التبيان في أقسام القرآن.ابن قيم الجوزية.ص 4.
دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع

–8 ينظر : البرهان في علوم القران. ج 1 .ص 179.

*في كتاب القرآن المجيد لمحمد عزة دروزة ص 102 يرى أن القسم ابتدأت به سبع عشرة سورة بزيادة سورتي «البلد» و »القيامة» اللتين ابتدأتا بقوله تعالى: «لا أقسم« ويمكن تبرير هذا التباين بين المؤلفين بكون الابتداء غير الاستفتاح فالأول لا يعني بالضرورة ورود القسم في مفتتح السورة الذي يعنيه الثاني أما المبرر الثاني فهو أن القسم منفي غير مقترن بالفاء التي تعني زيادة التأكيد وعدهما صاحب البرهان في الجمل الخبرية المستفتح بها .

–9 الذاريات : 23.

–10 المصدر نفسه ج 3 ص 40

–11 ينظر : الجامع لأحكام القرآن. القرطبي ج 1 ص 203.تصحيح و مراجعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

مكتبة رحاب الجزائر.1990.
–12 البرهان في علوم القرآن ج 3 ص 40.
–13 التين: 3–2.
–14 المصدر نفسه ج 3 ص 42.
–15 التين: 1
–16 نقلا البرهان في علوم القرآن.ج 3 ص 105.
–17 ص : 1، 3
–18 ينظر: التبيان في أقسام القرآن.ص9.
–19 المصدر نفسه.ص9.
–20 الذاريات: 23 .
–21 يونس : 53.
–22 التغابن: 7. –23 مريم : 68
–24 الحجر : 92. –25 النساء : 65 –26 المعارج : 40.
–27 التوبة: 42
–28التوبة: 56.
29 التوبة: 62.
–30 النور: 53.
–31 ينظر : الأيمان والنذور، ص 70.
–32ينظر: البرهان في علوم القران ج3ص41. و بداية المجتهد و نهاية المقتصد. محمد بن احمد بن رشد القرطبي. ج1.ص334.
دار الشريفية.الجزائر.1989
–33 الحجر: 72.
–34 ينظر الجامع لأحكام القرآن ج1 . ص 335.
–35 الزمر: 65.
–36 ينظر : الإتقان في علوم القرآن. السيوطي ج1 ص134.
–37 الحاقة: 38، 43.
–38 تأملات في سورة الحاقة د. محمد حسن باجودة ص 120.
دار بوسلامة.تونس.1985.
–39 ينظر المرجع نفسه ص121.
–40 ينظر المرجع نفسه ص 119 وما بعدها.
–41 البرهان في علوم القران ج3 ص80.

* إذا أخذنا بالتفسير الذي يرى المرسلات هي الملائكة وليست الرياح.
–42 الأيمان والنذور ص 71
–43 البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران ص 193. تحقيق و تهذيب سيد الجميلي.
دار المعرفة.القاهرة.1993.
–44 الأيمان والنذور ص 71. –45 الفجر: 1، 4. –46 النجم: 1، 7.
–47 الفرقان: 7.
–48ينظر: كشوف جديدة في إعجاز القران الكريم. عادل عبدالله القلقيلي ص91. عبدالله القليقلي. دار الشهاب .باتنة الجزائر.1988.
–49 الطارق :1، 4.
–50 ينظر كشوف جديدة في إعجاز القران الكريم. ص 47.
–51 الانشقاق: 16، 19
–52 كشوف جديدة في إعجاز القرآن الكريم ص 38.
–53 ينظر: تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى الشيخ محمود شلتوت.. ص 13، 14.ط1. دار الشروق.بيروت.1983.
–54 العاديات: 1، 4.
–55 تأملات في سورة العاديات د . حسن محمد باجودة ص 23.
دار بوسلامة.تونس.1985.

–56 القلم : 1.
–57 روائع البيان في تفسير آيات الأحكام. محمد علي الصابوني ج2 ص509. مكتبة رحاب.الجزائر.1985. –58 الضحى : 1، 3.
–59 الإتقان في علوم القرآن .جلال الدين السيوطي. ج 2 ص135. عالم الكتب. بيروت.د.ت.
–60 التبيان في أقسم القرآن.ص133.
–61 الصافات : 1، 4 . –62 الواقعة : 75.
–63 يس : 1، 4. –64 القلم : 1، 2.
–65 ينظر: مختصر تفسير الطبري.مراجعة مروان العطية.
دار الفجر الإسلامي.بيروت. د.ت
–66ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.ج1.ص740.
–67 الليل:1، 4. –68 المجادلة : 14 .
–69 الروم : 55.
–70 القرآن المجيد. محمد عزة دروزة. ص 190. المكتبة العصرية. صيدا. لبنان. د.ت.
–71 المنافقون: 08 .
–72 التوبة: 56.
–73 العصر: 1، 2.
–74 تفسيير القرآن الكريم – جزء عم–. محمد على الصابوني. ص 154.
دار الشهاب .باتنة.الجزائر.1987.
–75 الليل:1، 10.
–76ينظر: مدخل الى التحليل اللساني، اللفظ، الدلالة، السياق، العربي قلايلية ص80 وما بعدها .ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر.1995.
–77 الواقعة: 75، 80
–78 البلد :1.
–79 القيامة: 1.
–80 الحاقة: 38، 39.
–81 مختصر تفسير الطبري بهامش القرآن الكريم مذيلا بأسباب النزول للنيسابوري. مراجعة مروان سوار.دار الفجر الإسلامي.بيروت ص 538
–82 الحجر: 6.
–83 القلم: 2.
–84 مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ابن هشام الأنصاري ج 1 .ص 250.
–85 ينظر : المصدر السابق .ج1.ص 250.
–86 ينظر : القرآن المجيد : محمد عزة دروزة ص 205
–87 المرجع نفسه. ص 259.
–88 الذاريات : 23.
–89 ص : 1، 2.
–90 الزخرف : 1، 2.
–91 ينظر القرآن ونصوصه، عدنان زرزور ص. 317 وما بعدها
–92 الطور: 1، 8.
–93 ينظر « القرآن ونصوصه ص 317 وما بعدها.
–94 ينظر : القرآن المجيد ص 259.
–95 المرجع السابق ص160.
–96 يوسف:85

أ.خاين محمد